كراسات فكرية

مركز دلائل
Dala'il Centre

نقد الطبيعانية

رضا زيدان

سلسلة دراسات تصدر عن مركز دلائل - دراسة (٧) ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

www.dalailcentre.com

نقد

الطبيعانية

رضا زيدان

التعريف بالكاتب....

رضا محمد عزيز زيدان، باحث في فلسفة اللغة والعقل وعلوم الحديث والترجمة، تخرج من كلية الصيدلة جامعة الأزهر، صدر له عدد من المقالات والكتب الفكرية المتخصصة، نذكر منها:

(نقد الأخلاق التطورية: ريتشارد دوكينز نموذجا).

(نحو منهج وصفي للعلم: نقد فلسفات العلم المعاصرة).

(الأخلاق العصبية: نقد اختزال علم الأعصاب المعرفي للأخلاق).

(الإجماع الإنساني: المحددات ومعايير الاحتجاج).

(موثوقية السنة عقلا: حجية النقل الشفوي فلسفيا وأنثروبولوجيا).

ومن أعماله في الترجمة:

(فتجنشتاين والبحوث الفلسفية).

❊ ❊ ❊

١ – مقدمة

اعتدنا في تاريخ الفلسفة علىٰ أن نرىٰ تمثلات مختلفة **للمادية**.

والمادية هي نظرة أحادية للعالم ترىٰ أن المادة هي كل ما هنالك، أو ببساطة: كل ما هو موجود مادي، حتىٰ الوعي البشري هو نتاج لتفاعلات مادية، فالمادة هي التي تخلق وتبدع الوعي، وكل ما هو عقلي هو فيزيائي بشكل أو بآخر.

لكن ظهر في القرن العشرين مذهب مادي مختلف، وهو **الطبيعانية** Naturalism، فهذا المذهب ليس مجرد مذهب من المذاهب المعاصرة في الفلسفة، وإنما هو "منعطف" أثّر في معظم الفلاسفة المعاصرين.[١]

ومع حلول الألفية الثالثة باتت الطبيعانية هي **"الافتراض المألوف السائد لمعظم المدرّسين في معظم الجامعات في جميع أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية"**.[٢]

يقول هذا المذهب علىٰ اختلاف نسخه أن الطبيعة هي كل ما هنالك، وليس هناك أي شيء فائق للطبيعة، وهكذا يرفض هذا المذهب – كأي مذهب مادي – كل ما هو "فوق طبيعي" كالإله، وكل فاعلية agency من خارج الطبيعة.

لكن يتميز بخاصيتين في غاية الأهمية:

---

(١) في دراسة حديثة عام (٢٠١٣م) اختار نصف الفلاسفة المعاصرين البارزين هذا المذهب تحديدا (انظر مقال: What do philosophers believe? لـ David Bourget و David Chalmers)، كما أن عددا كبيرا من الفلاسفة الباقين لا يعارضون جوهر المذهب (وهو رفض ما هو غير طبيعي) إذ هو إطار عمل واقع لا يمكن إنكاره، حتى أنه يقال إن العلماء المؤمنين يكونون طبيعانيين في المعمل، وهذا نظرا لسيطرة هذا المذهب على الفكر الغربي المعاصر.

(2) The Blackwell Companion to Naturalism, 2016, p.1

أ- رفض التأسيس المعرفي:

عندما نقول إن كل المعارف البشرية قائمة علىٰ معارف أولية يقينية يتصرف وفقها جميع البشر مثل قاعدة **"لكل حدث مسبب"**، فنحن نبرر هنا المعرفة البشرية استنادا إلىٰ تلك المعارف الأصلية أو الملكات العقلية. بالمثل عندما نقول إن المعارف البشرية قائمة علىٰ الحس والتجربة، فنحن نبرر هنا المعرفة استنادا إلىٰ الحس، وفي الحالتين نحن نؤسس – ضد الشك – معرفتنا البشرية علىٰ أساس ما، سواء كان عقليا أم تجريبيا، وتسمىٰ هذه العملية **"التأسيسية** Foundationalism". يرفض المذهب الطبيعاني هذه العملية تماما، ويرىٰ أن المعرفة البشرية ليست بحاجة إلىٰ تأسيس ولا تبرير، علىٰ عكس البحث المتواصل طوال التاريخ الفلسفي علىٰ أسس نظرية للمعرفة الإنسانية وما يلحق بذلك من ميتافيزيقا (ما يسمىٰ الفلسفة الأولىٰ "first philosophy")، فمثلا، حينما رأىٰ أفلاطون أن الحواس لا تدرك إلا عوارض الأشياء ومعرضة للخداع وأن النفس هي التي تدرك ماهية الشيء أو صورته الحقيقية؛ فهو بذلك يسند المعرفة الحقة إلىٰ جوهر غير مادي (ميتافيزيقي) اسمه النفس. باختصار: ترفض الطبيعانية أي ميتافيزيقا، كالمثل الأفلاطونية، أو الجوهر الديكارتي، أو الشيء في ذاته الكانطي. فليس ثمة شيء إلا الطبيعة.

ب- التقريب بين الفلسفة والعلم الطبيعي:

إن الطبيعانية لا شك أنها مذهب فلسفي، لكنها ترىٰ أن البحث الفلسفي ليس نوعا منفصلا عن البحث العلمي، فالعلم والفلسفة يبحثان نفس القضايا، أو

علىٰ الأقل يمكن من حيث المبدأ أن نبحث الأسئلة الوجودية وأسئلة المعرفة من حيث تبريرها وأصلها من خلال البحث العلمي، فهناك علاقة اتصالية تكاملية بين الفلسفة والعلم، أو بين البحث الفلسفي والبحث العلمي، بل نفس المنهج يمكن – أو يجب – تطبيقه في البحث العلمي والفلسفي، لأن المنهجين غير متميزين عن بعضهما تميزا تاما، ونفس المشاكل التي نواجهها في العلم نقابلها في الأسئلة الفلسفية، وإن كانت القضايا الفلسفية أوسع وأكثر تجريدا من القضايا العلمية.

وحيث أن العلم قد استقر في القرن العشرين علىٰ أن منهجه ناجح تماما، نتوقع أن ينجح منهجه في دراسة الأسئلة الفلسفية. ومن هنا نعلم لماذا تُستخدم كلمة **الطبيعانية** وكلمة **العِلموية** بالتبادل في كثير من الأحيان الآن، لأن الطبيعانية المعاصرة عادة ما تقول إن العلم هو الصورة **الوحيدة** الصحيحة لوصف العالَم، أو الحديث عنه.

ولنطبق ذلك التقريب علىٰ نظرية المعرفة، يدّعي أنصار الطبيعانية أن مشكلة المعرفة وتبريرها مشكلة تجريبية، ويمكن حلها من خلال علم النفس وعلم الأعصاب وعلم اللغة وغير ذلك، بصرف النظر عما تقود إليه النتيجة، فيمكن أن تقول تلك الفروع من البحث التجريبي أن هناك بنىٰ فطرية **دماغية** تبني له العالم في ذهنه بشكل معين، وفي هذه الحالة يكون المؤيد طبيعاني فطري. أو تنكر تلك الفروع وجود هذه البنىٰ، وعلىٰ العلم أن يبحث عن نظريات بيئية (تعتمد علىٰ المحيط) تفسر كيف يكتسب الإنسان المعرفة، وفي هذه الحالة يكون المؤيد طبيعاني إيكولوجي. وفي الحالتين نحن أمام **إبستمولوجيا مطبعنة** epistemology naturalized، وهو مصطلح من تدشين الفيلسوف الأيقوني

للطبيعانية **ويلارد كواين** في مقاله المعنون بهذا المصطلح عام (١٩٦٩م)، وهناك العديد من محاولات طبعنة الإبستمولوجيا، لكن جميعها لا تخرج عن الفكرة الأساسية التي قدمها **كواين**. باختصار: الفلسفة عند معظم الطبيعانيين لا بد أن تكون عِلموية.

جدير بالذكر أن هناك **درجات** لحدة الطبيعانية، فهناك **طبيعانية جذرية** لا تسمح بوجود إلا ما هو فيزيائي، أو ما حدده العلم، إذ أن العلم الطبيعي (الفيزياء كأصل ومعها الكيمياء والبيولوجيا) هو **"معيار كل شيء، ومعيار ما هو موجود"**، ومقتضىٰ هذا المذهب تحويل العقل ومحتوياته (مثل الاعتقادات والأخلاق والرياضيات) والعلوم الإنسانية (كالتاريخ وعلم الاجتماع) إلىٰ عناصر فيزيائية بأي حال، ومن أمثلة هذا الاتجاه الاختزالي الجذري **ديفيد أرمسترونج** (David Armstrong) و**ديفيد بابينيو** (David Papineau).

أما الطبيعانية الأقل حدة أو الأوسع نطاقا أو التي لا تطابق بين ما هو فيزيائي وما هو طبيعي فتقول إن المنهج العلمي في العلوم الطبيعية ليس كله فيزيائي، فالبحث العلمي في البيولوجيا تحديدا وكيفية صياغة القوانين وطبيعة الكائن الحي لا يمكن اختزاله في كيانات فيزيائية، فالتفسير الفيزيائي شيء والتفسير البيولوجي (بل والكيميائي) شيء آخر. وهذا الاتجاه يمكن أن نطلق عليه **الطبيعانية الوسطية** أو الأرثوذوكسية. ثم من الطبيعانيين من يقول إن العلوم الإنسانية – كالتاريخ – علوم صحيحة، لها منهج بحثي خاص بها، وهي لا تقل عن الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. وأكثر هذه الفئة تحررا من يطلَق عليهم: **"الطبيعانيون الليبراليون** liberal naturalists"، علىٰ رأسهم الفيلسوف الإيطالي **ماريو دي كارو** (Mario De Caro) وهم منزلة خاصة، تقع في

الوسط بين رفض ما هو "فوق طبيعي" ورفض ماهو غير علمي، بمعنىٰ أنها ترفض ما هو فوق طبيعي، لكنها تسمح بوجود معرفة غير علمية، مثل الأخلاق والقيم، وتقر بوجود الفاعلية الإنسانية ومسؤولية الفرد عن فعله، وتقر بالوعي الذاتي. وهكذا هذه الفئة الحديثة متحررة في جانب كبير من الطبيعانية ومحتواها العلموي قليل، لكن في النهاية ترفض ما هو فوق طبيعي، وكما يقول جون ماكدويل: **"يهدف كل من الطبيعانية الجذرية والمتحررة إلىٰ تجنب ما هو فوق طبيعي بإيجاد طريق للنظر إلىٰ المعرفة والتفكير كظاهرتين طبيعيتين"**.[1]

من المعروف أيضا أن هناك مستويين للطبيعانية، **الطبيعانية الأنطولوجية** و**الطبيعانية المنهجية**، الطبيعانية الأنطولوجية **مذهب فلسفي** يقول بأنه ليس هناك في الوجود سوىٰ الكيانات القابلة للتفسير العلمي والعلاقات التي بينها. أما الطبيعانية المنهجية فهي **التزام** بأن يقتصر البحث العلمي علىٰ الروابط السببية الفيزيائية، فكل الأسباب لا بد أن تكون طبيعية تجريبية، وبهذا الالتزام **وحده** يمكننا الوصول إلىٰ إجابة علىٰ الأسئلة الأنطولوجية، ويمكننا تصحيح الطبيعانية الأنطولوجية. إن الطبيعانية الأنطولوجية مذهب فلسفي إلحادي في جوهره يجزم بأن كل المسبباب طبيعية وينفي أي تدخل أو فاعلية أو وجود لما هو خارق. أما المنهجية فهي التزام أو تعهد له مبرراته العملية. في الواقع معظم العلماء المعاصرين يتبنون الطبيعانية الأنطولوجية وليس المنهجية فحسب.

عملي في هذا المقال هو نقد **الطبيعانية الجذرية**، وإلزام **الطبيعانية المتحررة** بقبول ما هو "فوق طبيعي"، وإثبات أن الطبيعانية مذهب **فلسفي** لا يقوم علىٰ

(1) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, Naturalism in Question. Cambridge, Mass: Harvard University Press, p. 96

مبرر صحيح. لكن قبل ذلك، ينبغي أن نعود الآن إلىٰ خاصيتي الطبيعانية المذكورتين أعلاه، فمن الضروري تتبع تاريخ ظهورهما.

٢- تاريخ الطبيعانية:

كيف كانت علاقة الفلسفة بالعلم قبل ويلارد كواين؟

إن جوهر الطبيعانية الذي لا يخالف فيه أي طبيعاني هو نبذ كل ما هو فوق طبيعي (لذلك من أسماء الطبيعانية : Anti-supernaturalism)، وهذا الموقف ضد ما هو غير طبيعي لم يكن هو موقف أوائل فلاسفة العلم الحديث، فالأنظمة الفلسفية التي ظهرت مع بداية العلم الحديث – وكان هدفها إقامة العلم الحديث علىٰ أساس فلسفي متين – كانت تحتوي بشكل ما علىٰ عنصر ميتافيزيقي.

فمثلا، اعتقد **ديكارت** أن المعرفة الإنسانية لا يمكن تبريرها بدون إله كلي العلم والقدرة والصدق، وأن العقل الإنساني جوهر غير مادي لا تناسبه قوانين الأجسام، ومن ثم نادىٰ بالثنائية الديكارتية الشهيرة: العقل والجسد، لكنه فشل في كيفية تفسير التفاعل بينهما. أدرك **لايبنتز** – مِن بين فلاسفة تلك الفترة – استحالة هذا التفاعل بين مجالين مستقلين تماما، لكنه لم يقل بأن العقل فيزيائي، وإنما تبنىٰ نظرية ميتافيزيقية تقول بـ **"التجانس المسبق"**، حيث أن الله هو من برمج الجسد والروح بحيث يظهران في تجانس، رغم أنه ليس هناك علاقة سببية بينهما من أي نوع. واعتقد **باركلي** بأن الله هو القوة الوحيدة الفاعلة في الطبيعة. حتىٰ **جون لوك** زعيم التجريبية كان يؤمن بـ **"فاعل كريم كمصدر**

مطلق لكل قدراتنا المعرفية".[1] لكن الفيلسوف الذي يمكن أن نعتبره معادي للميتافيزيقا ويمثل أصل الطبيعانية هو **ديفيد هيوم**، فهو بالنسبة للفترة المبكرة من الفلسفة الحديثة يماثل **ويلارد كواين** بالنسبة لما كانت عليه الفلسفة في باكر القرن العشرين، وهذا ما سنشرحه الآن.

في بداية الفلسفة الحديثة كانت هناك محاولات لتأسيس العلم فلسفيا، أي كان هناك **فصل** بين الفلسفة والعلم، بل يمكننا القول إن العلم التجريبي كان في غاية الأهمية بفضل فلسفة العصور الوسطىٰ (التي لا تنفصل عن الدين) وأسباب اجتماعية واقتصادية أخرىٰ. وهذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار تأثر فلاسفة تلك الفترة إلىٰ حد ما بالنتائج العلمية المبهرة في وجوه فرعية في فلسفتهم. حاول **ديكارت** (رائد المذهب العقلي ورائد الفلسفة الحديثة) أن يقدم أساسا **قبليا** للعلم والمعرفة، وهو فكرة الله كجوهر لانهائي عليم قادر خَلَق المفكر، باعتبارها فكرة واضحة ومتميزة، وهي فكرة مطمورة في عقولنا، فهي ضرورية وفطرية، ولأننا نثق في الله نثق بناء علىٰ ذلك فقط في المعرفة والعلم. وحاول **جون لوك** (رائد المذهب التجريبي) إقامة مذهبه علىٰ التجربة بناء علىٰ الثقة في قدراتنا العقلية التي هي هبة من الله.

اختلف الوضع مع ظهور **هيوم**، فتحليله للسببية – علىٰ القراءة السائدة – اختزالي وتشكيكي، فبعد أن كانت السببية علاقة أنطولوجية أو موجودة حقا بين المسببات والآثار أصبحت علىٰ يد **هيوم** مجرد اطراد منتظم أو اقتران مستمر بين مسبب وأثر، فالنار عادة تحرق، لكن ليس هناك علاقة أنطولوجية اسمها التسبب. بالمثل، تحليله للأخلاق – الذي يحاكي تحليله للمعرفة – باعتبارها

(1) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, p. 23

قائمة علىٰ العواطف والغريزة والمصلحة الذاتية والعامة، فالعاطفة هي ما تحدد كون الفعل خيرا أم شرا، وأصل الأخلاق ذاتي، فالبشر يكرهون الظلم لأنه يثير فيهم سخطا، حتىٰ لو كان ظلما لغيرهم، لأن هناك عاطفة تشارك وجداني بين البشر. هذا التحليل للأخلاق جزء من مشروع **هيوم** المتعلق بدراسة الإنسان علميا. وأدق وصف لطبيعانية **هيوم** في نظري هو وصف **هيو برايس** (Huw Price)، حيث يقول إنها تطلب من الفلسفة: **"أن تبدأ بما يخبرنا به العلم عن أنفسنا [وعن العالَم من باب أولىٰ]. يخبرنا العلم أن البشر كائنات طبيعية، وإذا تعارضت مزاعم وطموحات الفلسفة مع هذه الرؤية [العلمية]، فالفلسفة يجب أن يستغنىٰ عنها"**.[١]

لاحظ أمرين مهمين هنا، **الأول**: (أ) الانفصال بين العلم والفلسفة، أو علىٰ الأقل التمييز بين الممارستين (ب) القبول المبدئي للنشاط الفلسفي من جانب العلم والعلماء، وقبول العلم للفلسفة ما دام أنها لا تعارضه بحال. **الثاني**: تصوراتنا لأنفسنا والعالم دائما معرضة للنقد، أو مشكوك فيها إن أردنا الصراحة، وهيوم: **"كان علىٰ وعي بالفعل بأن نتائج العلوم الطبيعية علىٰ الإنسان ستقود بطبيعة الحال إلىٰ شكوكية (لا حل لها وفقا لهيوم)، فيما يتعلق بالعالم الخارجي، والسببية، والنفس، وغير ذلك"**.[٢]

استمر هذا الفصل بين الفلسفة والعلم حتىٰ مع ظهور **الوضعية المنطقية** في القرن العشرين. ففي بداية هذا القرن ظهرت الوضعية المنطقية، وهي حركة

(١) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٨.

فلسفية تمثل شكلا من أشكال المذهب التجريبي في صورة متطرفة، وتأسست هذه الحركة في عشرينات القرن العشرين علىٰ يد مجموعة من أصحاب التوجه العلمي المعارض لكثير من المسائل التي تناقش في الفلسفة.

كلمة **"الوضعية"** مشتقة من فلسفة **أوجست كونت** التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وهم وضعيون لأنهم يكتفون بالواقع الحسي فقط، ويبجلون **هيوم** والفلاسفة الحسيين، وهم **منطقيون** لأنهم يحللون كل عبارة تحليلا منطقيا. وكانت التطورات العلمية في السنوات الأولىٰ من القرن العشرين، خصوصا أعمال **أينشتاين**، ذات تأثير كبير علىٰ تلك الحركة، بجانب التطورات النوعية في المنطق والرياضيات وفلسفة اللغة. ورغم أن الوضعية المنطقية كانت تمجد العلم، إلا أنها جعلت وظيفة الفلسفة هي تناول العلم بالتحليل النقدي المنصب علىٰ مستوىٰ المبادئ والمناهج والفروض والنتائج، للتحقق من اتساق هذا الخطاب وخلوه من التناقض، فهناك إذن ممارسة علمية وممارسة **فلسفية قبلية** priori.

من ملامح هذا المنهج التمييز بين نوعين من القضايا، **القضايا التحليلية** (المنطق والرياضيات) و**القضايا التركيبية التجريبية** (العلوم الطبيعية). أما القضايا التحليلية، مثل قضية **"كل أعزب غير متزوج"** و **"٢+٣=٥"** فهي تحصيل حاصل، لأن شقها الأول يعني شقها الثاني، فهي تكرارية المحمول، وليس لها أي محتوىٰ معرفي أو إخباري عن الواقع، ونصل إليها استنباطا ونعرف صدقها أو كذبها فقط بتحليلها لغويا **قبل** التجربة. أما القضايا التركيبية فهي أي قضية من قضايا العلم الطبيعي، مثل المعادن تتمدد بالحرارة،

والعلم الطبيعي محك الصدق فيه هو الحواس.[١] هذه القضايا (التحليلية والتركيبية) هي القضايا التي لها معنىٰ، أما ما سوىٰ ذلك من أحكام أخلاقية وميتافيزيقية فلا معنىٰ لها، والمعنىٰ عندهم هو إمكان التحقق التجريبي من القضية، وحيث أن نظرية ديكارت مثلا عن المعرفة لا يمكن اختبارها فهي لغو، بالمثل أي حكم أخلاقي أو ديني. أما من ناحية التأسيس الإبستمولوجي للمعرفة فالتجريبيون عموما يردون المعرفة ببساطة إلىٰ انطباعات حسية، وحاول الوضعيون المناطقة تجنب الجانب الذاتي للانطباع الحسي، أو – وهي صورة أخرىٰ للمشكلة – تجنب التبرير الذاتي للاستقراء، فما يجعل الإنسان ينتقل من جزئيات محسوسة إلىٰ حكم كلي هو أمر سيكولوجي نفسي وفقا للتجريبية التقليدية، لكن هذه المحاولة فشلت فشلا ذريعا، وهذه النقطة لا تهمنا هنا.[٢] الحاصل أن الفلسفة قبل **كواين** ظلت منفصلة عن العلم حتىٰ مع الوضعية المنطقية، **لكن مع الوضعية المنطقية تقيدت لتصبح أداة لتنقية العلم من الميتافيزيقا**، التي حاربتها الوضعية بشراسة.

ثار **ويلارد كواين** علىٰ هذا التقليد الفصلي بين العلم والفلسفة، ففي مقال مهم عنوانه **"عقيدتا التجريبية"** [٣] (١٩٥١) يشن **كواين** هجوما جذريا علىٰ قسمة التحليلي والتركيبي، وكانت استراتيجيه هي: أولا إظهار أن مفهوم

(١) وقد انتقد فلاسفة علم كثر هذه النظرة الحسية للعلم الطبيعي، فالملاحظة أو الحواس أو الخبرة الحسية جزء مهم من المشروع العلمي، لكنها دائما ما تكون تحت تأويل معين، أي في ضوء نظريات سابقة وإطار بحثي عام، راجع في ذلك كتاب "بنية الثورات العلمية" لتوماس كون، وكتاب "منطق البحث العلمي" لكارل بوبر.

(٢) انظر الباب الثالث من كتاب "فلسفة كارل بوبر" ليمنى الخولي، ففيه عرض شامل لمناطق ضعف الوضعية المنطقية في تبرير ذاتية الانطباع وما يسمى العبارات الأساسية.

(٣) وهو المقال الثاني من كتاب "من وجهة نظر منطقية"، وهو مترجم بأكثر من ترجمة.

التحليلي لا يمكن تعيينه كما ينبغي، فكل المحاولات لتحديد ما يجعل العبارة تحليلية عرضة للاتهام بالاستدلال الدائري، ومن ثم يقترح أن المذهب السائد لنوعي الحقيقة، الحقيقة بسبب **المعنىٰ** والحقيقة بسبب **الواقع**، لا يمكن الدفاع عنه. يقول **كواين**: **"يُغرىٰ المرء أن يفترض... أن حقيقة العبارة قابلة للتحليل إلىٰ حد ما إلىٰ مكون لغوي ومكون واقعي، فإذا أخذنا بهذا الافتراض بدا بعدئذ من المعقول أن المكون الواقعي في بعض العبارات يجب أن يكون لاغيا؛ وهذه هي العبارات التحليلية. ولكن الحد الفاصل بين العبارات التحليلية والتركيبية لم يُرسَم ببساطة برغم كل معقوليته القبلية. فوجود مثل هذا التمييز المرسوم إنما هو عقيدة غير تجريبية للتجريبيين، بل هو أمر ميتافيزيقي إيماني".**[1]

فلو تصورنا أن كل معارفنا دائرة :

فبعض معتقداتنا تقع قرب محيط الدائرة، وهي الأكثر قابلية للتعديل علىٰ ضوء التجربة، ومن ثم تماثل تلك التي تتصف بأنها تركيبية في التقليد التجريبي. بينما المعارف التي حول مركز الدائرة فتمثل الحقائق الأوثق، لكن هناك احتمال دائم بالتخلي عنها، والخط الفاصل بين المعرفة المركزية والمعرفة المحيطية مرن، فالأمر مسألة درجة، لأن المعرفة التحليلية أو المحيطية ليست معفاة من التنقيح، يقول **كواين**: **"إن التضارب مع التجربة عند محيط الدائرة بسبب إعادة التنظيم في المجال..فإذا أعدنا تقويم عبارة واحدة، علينا أن نعيد تقويم بعض العبارات الأخرىٰ التي قد تكون عبارات مرتبطة منطقيا بالعبارة الأولىٰ، أو قد تكون عبارات الروابط المنطقية نفسها، ولكن... يوجد مدىٰ كبير**

(١) رضا زيدان، ٢٠١٨، نحو منهج وصفي للعلم، مركز براهين، ص١٠١.

لاختيار العبارات التي سوف يعاد تقويمها على ضوء أية تجربة معاكسة مفردة".[١]

ولأن التحليلي يمثل الجمل التي هي صحيحة من حيث المعنىٰ فقط، **والتركيبي يمثل الجمل التي هي صحيحة من حيث المعنىٰ ومن حيث الواقع أو ما يكون العالَم عليه** : كانت نتيجة هذا المقال الهادم لهذا الفصل – بجانب أفكار أخرىٰ مهمة قدمها **كواين** لكنها تختص أكثر بفلسفة العلم – هو ضم القضايا الفلسفية والقضايا التجريبية في سلة واحدة، سلة المعرفة البشرية، ورفض كل ممارسة سابقة priori للممارسة العلمية، **ومن هنا نشأت فكرة التواصل بين العلم والفلسفة،** الفكرة المركزية للطبيعانية، وبالتالي لا تقوم نظرية المعرفة علىٰ تحليل قبلي للمعرفة، وإنما تقوم علىٰ انتظار نتائج البحث العلمي (علوم الإدراك والأعصاب)، أي إبستمولوجيا مطبعنة. وعلىٰ ذلك فالطبيعانية "في جوهرها شكية"[٢]، لا بمعنىٰ أنها تدعو إلىٰ الشك، وإنما بمعنىٰ ظرفية المعرفة، فحتىٰ النتائج العلمية المؤيدة للغاية وعلىٰ نطاق واسع ليست يقينية، وإنما يُسلّم بها برجماتيا، أو باختصار: المعرفة نافعة وليست مبررة.

إذن...

رأينا كيف اتصلت الفلسفة بالعلم في القرن العشرين، وكيف أصبحت الممارسة الفلسفية جزءًا من النشاط العلمي، وكيف نشأت إبستمولوجيا مطبعنة. لكن أود الإشارة في ختام هذه الفقرة إلىٰ نقاط معينة في طبيعانية **كواين**.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(2) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, p. 108

أولا: في كثير من المواضع يعني **كواين** بكلمة "**العلم**" العلم الطبيعي، أي الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم النفس **السلوكي**. ويبدو أن العلوم الإنسانية أقل درجة من العلوم الطبيعية عند **كواين**، مثل الأنثروبولوجيا وعلم النفس العادي (وهذا ربما يرجع إلىٰ الطبيعة "الفلسفية" المرفوضة للعلوم الإنسانية، فالحسم فيها قليل ومعايير قوانينها مختلفة عن قوانين العلوم الطبيعية)، وطبقا لذلك يحمل **كواين** تصورا **قبليا** اختزاليا عن العلم يخالف التعددية المنهجية الحاصلة فعلا في العلوم المختلفة.

ثانيا: وفق القراءة الصارمة لحديث **كواين** في مقالاته عن العلم يبدو أنه يتبنىٰ عِلموية جذرية، فبالنسبة له ليس هناك أي فهم ولا حديث عن العالم إلا الفهم والحديث العلمي، حتىٰ حديثنا عن اعتقاداتنا وأنفسنا وخطابنا الأخلاقي [(١)] (وننبه هنا علىٰ أن محتوىٰ النقطتين السابقتين في فلسفة **كواين** فيما يتعلق بمدىٰ الجانب الطبيعاني فيها هو القراءة المشهورة عند المتخصصين في فلسفته، لذلك اعتمدتها، ولأن الغرض من هذا المقال هو نقد الطبيعانية المعاصرة، التي تتوافق مع هذه القراءة السائدة، أو هي التي أسستها، وليس بحث موقف **كواين** الحقيقي أو اتساقه[(٢)]). لكن كيف ذلك؟ كيف يمكن التعامل مع الذهن وعلاقته بالجسد كما نتعامل مع أي شيء طبيعي؟ كيف يمكن التعامل مع

(1) Macarthur, D. (2008). Quinean Naturalism in Question. Philo, Vol. 11 No. 1, 11(1), 1–14

(٢) ومع ذلك فأنا مقتنع بدراسة حديثة جدا تدلل على أن كواين لم يكن عِلمويا كما هو مشهور، وأنه يستخدم العلم بمعنى أوسع من العلم الطبيعي أحيانا، وغير ذلك مما يعارض كونه طبيعانيا جذريا، بل ومما يعارض كونه يرفض أي إبستمولوجيا غير علمية، ويمكن القول بأن هذه الدراسة تدلل على أن كواين لم يشترك مع الطبيعانية سوى في إنكار ما هو فائق للطبيعة فحسب. انظر:
Verhaegh, S. (2017). Quine on the Nature of Naturalism. The Southern Journal of Philosophy, 55(1), 96-115

الأخلاق والقيم المفترض أنها **غير-طبيعية** علىٰ أنها **طبيعية**؟ سنقتصر علىٰ إجابة السؤال الأول للاختصار، فالتعامل الطبيعاني مع العقل والقيم هو نفس التعامل، كما سنرىٰ الآن.

٣- الطبيعانية وتصورها للعقل:

وفقا للطبيعاني العقل ليس شيئا خارج الطبيعة، ولا يمكن أن تحكمه مبادئ تختلف عن المبادئ التي تحكم الطبيعة غير الإنسانية. وهذا في حد ذاته يجعله يميل إلىٰ خيارين في دراسة (أو طبعنة) العقل، وهما **الفيزيائية الاختزالية** و**المادية الإقصائية**، كما سنوضحهما الآن (ومع ذلك ليس كل الطبيعانين فيزيائيين اختزاليين أو ماديين إقصائيين كما قلنا، وإن كان الكثير منهم كذلك). سأكتفي بعرض الفيزيائية الاختزالية والمادية الإقصائية لأن نقدي القادم لهما سيتناول الطبيعانيين غير الاختزاليين، إذ أن نقدي سوف يقوم علىٰ توسيع مفهوم الطبيعي أكثر مما يسمح به هؤلاء الطبيعانيين اللاختزاليين.

في حياتنا العادية نحن ننسب للبشر اعتقادات ورغبات ومشاعر، فنقول إن اعتقاد الشخص بأن "**إيذاء الناس خطأ ديني وأخلاقي**" يمنعه من إلحاق الأذىٰ بالآخرين، ونقول إن "**رغبة شخص في النجاح الدراسي**" هي ما جعلته يجتهد ويذاكر، ونقول إن "**شعور الشخص بالبرد**" هو الذي جعله يرتدي معطفا عن قصد. كل هذه الحوادث العقلية (الاعتقادات والرغبات والمشاعر والمقاصد) لها تأثير **سببي** علىٰ السلوك أو التصرف في خطابنا اليومي، وهو تأثير معتمد عند البشر. ينكر الماديون الإقصائيون وجود هذه الحوادث العقلية، ويسمونها

استخفافا بـ **"علم النفس الشعبي"**، ويحاولون بناء علم نفسي طبيعاني أو مادي يقوم على علم الأعصاب والإدراك : **"ولا يرون أفضلية لعلم النفس الشعبي على الفيزياء الشعبية من حيث كونه مستودع المفاهيم الخاطئة والالتباسات الخالية من قوة تفسيرية حقيقية. وكما اجتاحت مسيرة التقدم العلمي المفاهيم البدائية عن السحر والكيمياء، فكذلك سيأتي الوقت الذي تُجرَف فيه المصطلحات البدائية المستخدمة لوصف وتفسير حالاتنا العقلية والسلوكية. على الأقل، حتى لو بقيت المصطلحات في حديثنا اليومي سندرك أن من الخطأ تفسيرها بواقعية. على هذا الرأي، ليس هناك فعليا حالات كالاعتقادات والرغبات والمقاصد تماما، كما أنه ليس هناك أشياء مثل السحر وإكسير الحياة"**.[١] وهي من جنس نسبة الشعوب البدائية الأمراض إلى العفاريت – كما يصف **ريتشارد رورتي** – يقول رورتي: **"يمكن أن تكون بالنسبة للتقدم المستقبلي للفيسيولوجيا النفسية كما هي العفاريت بالنسبة للعلم الحديث، وكما نريد الآن أن ننكر وجود العفاريت فكذلك العلم في المستقبل قد يريد إنكار الإحساسات"** ويزعم أن : **"المحمولات العقلية ينبغي أن تزول نظرا للقدرة التفسيرية الممتازة للنظرية العصبولوجية"**.[٢]

أما **الفيزيائية الاختزالية**[٣] فلا تنكر صراحة وجود الحوادث العقلية كالاعتقادات والرغبات، وإنما تأمل في أنه بتقدم العلم سنكتشف أن الحالات

---

(1) Lowe, E. Jonathan (2000). An Introduction to the Philosophy of Mind. Cambridge: Cambridge University Press. P. 62

(٢) المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) الفيزيائية ليست هي المادية ببساطة. المادية تضع شروطا معينة لكون شيء مادي، مثل شروط ديكارت بكونه يشغل مكانا، لكن نظرا لأن هذه الشروط قد تتغير، كما حدث فعلا مع ميكانيكا الكم على بعض

العقلية من هذه الأنواع هي أنواع معينة من الحالات الدماغية: بالضبط كما كشف العلم أن ظاهرة البرق هي في الواقع نوع من التفريغ الكهربائي.[١] أي أن الفيزياء الاختزالية تقول إن أي حادث عقلي يمكن اختزاله في حادث دماغي يدرسه علماء الأعصاب. ورغم هذا الفرق المهم بين المادية الإقصائية والفيزيائية الاختزالية إلا أن النتيجة واحدة من حيث تجاهل الحوادث العقلية، والإصرار على أن **السببية لا بد أن تكون مادية**، أي علاقة بين الدماغ والجسد.

٤ – نقد الطبيعانية:

أ– تشويه العقل البشري:

إن **الطبيعانية الجذرية** متى تعاملت مع المفاهيم النفسية (الاعتقادات والرغبات مثلا) بمنظور العلم، سواء كان ذلك بالمادية الإقصائية أو الفيزيائية عموما، فهي تشوه تلك المفاهيم باعتبارها **نظرية** theory، لأننا : **"عندما ننسب الاعتقادات والرغبات إلى الناس ونحاول فهم سلوكهم من حيث امتلاكهم لحالات عقلية، لا نفعل أي شيء إطلاقا يشابه ما يفعله العلماء عند تفسير حركات الأجسام الكبيرة من خلال الاستناد إلى قوى أثرت عليها [أي نحن لا نقدم نظرية]. وذلك لأن التفسيرات المؤطرة فيما يتعلق بالاعتقادات والرغبات هي تفسيرات عقلانية، نفسر بها سبب تصرف الناس بالطرق العادية من خلال**

التأويلات لها، فبعد ميكانيكا الكم أصبح من الممكن التسليم بوجود شيء رغم أنه ليس ماديا بشكل كامل وفقا لديكارت كالإلكترون أو ليس ماديا على الإطلاق كالأمواج في ميكانيكا الكم، إذ يبدو أنها لا تشغل أي مكان. أما الفيزيائية فهي التزام بمنهج الفيزياء نفسه، فما تقر الفيزياء بوجوده تقول الفيزيائية بوجوده.

(١) المرجع السابق، ص ٨٠.

الاستناد إلىٰ أسبابهم المظنونة لهذا التصرف. فالجماد حينما يتصرف وفق قوانين ميكانيكية لا يتصرف بهذه الطرق لأن لديه أسباب لهذا التصرف، أما التفسيرات العقلانية فتخضع لقيود معيارية، خلافا لتفسيرات العلم الطبيعي. إن القواعد هي المعايير التي يجوز لها أن تحكم أسباب الفاعل العاقل للتصرف تصرفا حسنا أو سيئا، ومن الواضح أنه لا علاقة بين هذه القواعد والتفسيرات الفيزيائية المحضة للظواهر، فنحن لا نذم حجرا لأنه سقط ولا نمدح الشمس لأنها تشرق كل يوم". [١]

بعبارة أخرىٰ تخلط الطبيعانية بين **المبرر** أو **العلة** (reason) و**السبب** (cause)، فكل إنسان له مبرراته الاعتقادية لتصرف معين صدر منه، وعندما نذكر هذه المبررات – سواء كانت دينية أو أخلاقية – فنحن لا نجعل هذه المبررات أسبابا للتصرف كالأسباب في العلوم الطبيعية، فعلىٰ الأقل يمكن لشخص أن يمتلك مبررات قوية لتصرف معين ولا **تسبب** هذه المبررات قيامه بهذا التصرف، فالشخص ككل هو الذي يتصرف في نهاية الأمر. هذه المبررات تحاول الفيزيائية الاختزالية اختزالها في الأسباب (الدماغ والأعصاب)، وتنبذها من بابها المادية الإقصائية. لكن بمجرد النظر : **"هذه الرؤية لم يُتوصل إليها علىٰ الأرجح بوسائل طبيعانية محضة. فهي لا تقول فقط بأن كل الوقائع الفيزيائية، يُفترض أنه بالإمكان تحديدها بوسائل طبيعانية بالتفصيل، وإنما تذهب إلىٰ ما هو أبعد، فتقول أن هذه الوقائع هي كل ما هو موجود. هذا الزعم هو أكبر من مجرد مجموع هذه الوقائع الفيزيائية".** [٢]

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(2) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, p. 27

ولهذا رفض هذه **الطبيعانية الجذرية** فلاسفة كبار، على سبيل المثال يقول **هيلاري بوتنام: "إن المذهب الذي يشترك به معظم فلاسفة العلم (والذي اشتركتُ به لسنوات كثيرة) هو المذهب القائل بأن قوانين العلوم الراقية المستوى كعلم النفس وعلم الاجتماع قابلة للاختزال إلى قوانين العلوم المتدنية المستوى كالبيولوجيا، والكيمياء، وانتهاء بقوانين فيزياء الجسيمات الأولية. إن قبول هذا المبدأ يتطابق عموما مع الإيمان بوحدة العلم ومع الإيمان بالمذهب الحيوي أو بالمذهب النفسي أو مع شيء ما ردئ على أي حال.. وأجادل بأن هذا المذهب خاطئ".**[١]

ونتيجة لذلك، ذهب كثير من الطبيعانيين إلى توسيع مفهوم الطبيعانية ليشمل الحقائق البيولوجية، ليشمل الكائنات الحية، أي نخرج قليلا عن الفيزياء كإطار عمل نموذجي. لكن : **"إذا توسع المفهوم الفيزيائي ليشمل الوقائع البيولوجية أيضا، فما هي هذه الوقائع المضافة؟ هل الوقائع البيولوجية ستشمل الوقائع القصدية للبشر كونهم يعتقدون ويعرفون ويشعرون ويريدون ويفضّلون ويقيمون أشياء معينة ؟".**[٢] في الواقع لابد أن تشملها، لأن مفاهيم البشر النفسية أساسية لفهم تصرفاتهم، بل ونزوع الكائنات الحية وتعاملها مع بيئتها أمر جوهري لدراستها، هذه المفاهيم **طبيعية** لا شك، ولا تختلف من هذا الوجه عن المفاهيم الرياضية والمنطقية التي يقبلها أي طبيعاني في البحث العلمي، فلماذا يقبلها ويرفض المفاهيم النفسية ؟ رغم أن كل هذه المفاهيم – النفسية

(١) سرجيو مورافيا، ١٩٩٥، لغز العقل: مشكلة العقل والجسد في الفكر المعاصر، منشورات وزاة الثقافة دمشق، ترجمة عدنان حسن، ص١٨٧.

(2) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, p. 28

والرياضية – ليس لها وجود واقعي عند معظم الفلاسفة الطبيعانيين؟ : "**يجب أن نعترف بأننا في الواقع نفكر بتلك الطرق، وأننا نعتقد أن...٧+٥=١٢، وهكذا. ومن ثم نعترف بأن مثل تلك القضايا الواضحة أو التي لا يمكن إنكارها هي قضايا صحيحة**".[١]

إذا قبلنا بذلك سوف نصل إلىٰ المستوىٰ الأكثر تحررا للطبيعانية وهو السماح بكل ذلك وقبول الإرادة الحرة والأخلاق وغير ذلك من الأمور الضرورية لدراسة الإنسان طبيعيا، وبالطبع رفض الفيزيائية والمادية الإقصائية، وقبول تعددية منهجية في العلم، فمنهج علم التاريخ لا يمكن أن يكون هو منهج الفيزياء.

لاحظ أننا بدأنا **بطبيعانية جذرية** (علموية فيزيائية) ثم اضطرنا الواقع وتعقيده إلىٰ **طبيعانية ليبرالية** تقول بأن : "**من الواجب قبول أي شيء صحيح نجد أنه لابد من قبوله لفهم أي شيء نظن أنه جزء من العالم**"[٢]، كي نستطيع الإقرار بالمفاهيم النفسية والأخلاق والرياضيات دون تناقض. لكن هناك نقطة جديرة بالذكر والتأمل، وهي أن هناك بعض الفلاسفة **الملحدين** قد انتقدوا الطبيعانية عموما، والجذرية خصوصا، لتضحيتها بهذه المعارف الأساسية، منهم **تيموثي ويليامسون** (Timothy Williamson)[٣]، وهذا يدل بدرجة ما علىٰ ضعف الطبيعانية، لأن الملحد بطبيعته يميل إلىٰ هذا الإطار العِلموي أو الطبيعاني، لا

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٣) انظر مقاله : "ما هي الطبيعانية" ؟ في مجلة نيوريورك تايمز هنا:
https://opinionator.blogs.nytimes.com/2011/09/04/what-is-naturalism

سيما إذا كان هو الإطار المألوف والسائد. ومع ذلك – وبصرف النظر عن هذه النقطة – فالطبيعانية المتحررة تكفيني عند هذا الحد، أي أنني أسلم جدلا بأن الطبيعانية تشمل كل شيء إلا ما هو فوق طبيعي.

٢– أحادية وصفية بلا دليل:

لندع تفسير المفاهيم الإنسانية ونتحدث عن الأمور الطبيعية، هل الوصف العلمي هو الوصف الوحيدة للظاهرة الطبيعية؟ يجيب الطبيعاني الجذري على هذا السؤال بالإيجاب. انظر مثلا قول عالم الفلك البريطاني **آرثر إدينجتون**: **"يختلف تصور الرجل العادي للمنضدة كل الاختلاف عن تصور العالِم لها، فالرجل العادي يرى أن المنضدة جسما له لون وملمس وشكل معين وصلابة معينة ولها ثبات نسبي في المكان وديمومة في الزمن، لكن العالم يرى نفس المنضدة شيئا آخر، مؤلف من ذرات بينها خلاء، وتصدر عنها شحنات كهربية تتحرك بسرعة خاطفة لا ترى بالعين المجردة"** فما هو الوصف الأصح؟ وصف العالِم أم وصف الإنسان العادي؟

سيجيب الطبيعاني المعتدل بأن وصف العالِم **أصح**، وسيجيب الطبيعاني الجذري بأن الوصف **الوحيد** الصحيح هو وصف العالِم، ويلزم من ذلك – كما يصرح **إدينجتون** – أن : **"ما يراه الرجل العادي وهم"** [١]، لأن حديثنا العادي عن الأشياء في العالَم كموضوعات يشبه **"عفاريت"** البدائيين التي خلّصنا منها العلم. مرة أخرى يعتبر الطبيعاني أو العِلموي حديثنا العادي عن الأشياء من

(١) محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، مكتبة المتنبي، ص٦٤.

حولنا بمثابة نظرية علمية، والحقيقة هذا تصور ساذج جدا للغة، فالبشر **طبيعيا** [أيْ ظاهرة تسمح بها الطبيعانية] يستخدمون اللغة باستخدامات مختلفة، فنحن نستخدمها للإخبار عن مشاعرنا وللإخبار عن العالم ولمجرد الانفعال (كصرخات الألم المستبدلة بكلمة "أنا أتألم!")، بل **ونصدر بيانين لغويين عن نفس الظاهرة** كل منهما له نطاق صحة واستخدام مختلف أو استجابة مختلفة. فالبيان **"الأرض كروية وتدور حول الشمس"** هو بيان لغوي أساسي في العلم، لكن في حياتنا اليومية نقول **"عندما طلعت الشمس وعندما غربت الشمس.."** لا نقصد تكذيب البيان العلمي، وإنما هو بيان لغوي معتبر في نطاق الحياة اليومية، حتىٰ الطبيعانيين أنفسهم يستخدمونه في حياتهم العادية، إنه **بيان أساسي يمثل تعامل البشر مع الطبيعة منذ أقدم الحضارات المعروفة.**

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن أن نتحدث في حياتنا بلغة العلم الدقيقة التي لا حد لها، ولا أن نتصرف مع الأشياء من حولنا علىٰ حسب جديد النظريات. يقول **ستيفن تولمين : "ليس من حق العالم أن يشكك في أي تفسير للتجربة تقدمه اللغة اليومية المعتادة بحجة أن هذه اللغة تخفق فيما تتصدىٰ له، لأن اللغة اليومية تصف موضوعات تجربتنا علىٰ نحو يحقق أغراضنا المعتادة أكمل تحقيق... فالمنضدة التي أكتب عليها صلبة، وكذلك الحال في الكرسي الذي أجلس عليه، ومن حقي أن أتخذ منهما مثلا للشيء الصلب عندما أقوم بتعليم أي شخص فكرة الصلابة، وعلىٰ أساس معرفتي بصلابتها أبني قناعاتي بأنني إذا اصطدمت بأي منهما في الظلام سأصاب بكدمة.. غير أن العالِم يطرح جانبا فكرة الصلابة بمعناها اليومي لأنها قد تؤدي به إلىٰ الاعتقاد الخاطئ بأن أي شيء لا يمكن أن يخترق المنضدة ولا حتىٰ شعاع من أشعة ألفا. ومن حقه تماما أن يفعل**

ذلك بوصفه عالما فيزيائيا، ولكن من الخطأ والتخبط أن يقول إن هذه المنضدة ليست صلبة على الإطلاق لأن أشعة ألفا تخترقها، فلا بد إذن أن تكون مليئة بالثقوب، أي أن العالِم يكون على خطأ لو تصور أن نتائج تجربته تفند مفهوم الصلابة بمعناها اليومي".[١] وكل هذا على التسليم بأن العلم تقدمي والنظريات الحديثة أصدق وصفيا من النظريات القديمة، وأن هناك معيار صارم للتفرقة بين ما هو علمي وغير علمي، رغم أن كل هذا في أقل أحواله مشكل جدا، ومحل نزاع كبير بين فلاسفة العلم.[٢]

يتفق **الطبيعاني المتحرر** مع هذه التعددية الوصفية للطبيعة، ويتفق أيضا مع وجود مفاهيم غير مادية، مثل **"الشخص"** و **"حرية الإرادة"** و**"الأخلاق"** بصرف النظر عما يقوله العلم صراحة عن الدماغ أو تأويلا على يد منكري الإرادة الحرة مثلا. لكنه سيرفض البيان التالي من أصله **"الملائكة هي التي تحرك السحاب"** لأنه بالنسبة إليه تفسير فوق طبيعي. لكن من قال إنه تفسير explanation؟ حقيقة الأمر أن هذا البيان يتحدث عن أمر واقعي لكنه ليس تفسيرا، وإنما هو استجابة **طبيعية** من البشر للأحداث الطبيعية، أي هو **يمثل تعامل البشر مع الطبيعة منذ أقدم الحضارات المعروفة**، فالجن، بمعنى كل ما غاب عنا، في الأديان التوحيدية وعند الشعوب القديمة كان يُنسب لها تأثير واقعي، وفي هذه النسبة جوانب انفعالية خصبة نسيها الإنسان بعد الثورة العلمية في أوروبا، لكن لا يمكن بيانها هنا.

(١) فؤاد زكريا، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان. دار الوفاء، ص١٠٤.

(٢) راجع كتابي : "نحو منهج وصفي للعلم".

إن البشر قبل **أحادية** التفكير العلمي (لا أقول التفكير بشكل عام، فالإنسان قبل العلم كان يفكر ويستدل بنفس طرق الاستدلال العلمية، فالحضارة الفرعونية مثلا لا تجد متخصص ينكر فكرها العلمي المتطور) كانوا يفسرون الظواهر بعقلانية، فيستعينون مثلا بعشب معين لعلاج مرض معين، لكن في نفس الوقت لم يكن هذا العلاج المادي يمنعهم من ممارسة طقس أو سحر معين، أحيانا يكون تكميليا وأحيانا يكون أكثر أساسية من العلاج المادي.[١] هذه الممارسة الدينية لم تطرد الاستدلال العلمي، وإنما كانت مختلطة به **طبيعيا** في الخبرة الطبية ككل. أعني أن الإنسان قبل العلم لم يكن يقسم العالَم إلىٰ طبيعي وفوق طبيعي[٢]، وإنما كان منفتحا مع كافة أشكال الخبرة، أو **منفتحا مع الطبيعة بالمفهوم الشامل**.[٣]

بشكل آخر: إذا كان الطبيعاني المتحرر يسمح بوجود موضوعي للمنضدة رغم أن العلم يقول إنها مجرد ذرات ويسمح بوجود مفهوم الشخص والمسؤولية الأخلاقية لتفسير الأفعال الإنسانية، رغم أن معظم علماء الأعصاب ينكرون هذه المفاهيم، ورغم أن الطبيعاني نفسه ينكر وجود روح يُنسب إليها مفهوم الشخص ويبقي علىٰ مفهوم الشخص: فلماذا ينكر الطبيعاني

(١) وكتب الأنثروبولوجيا الطبية مليئة بأمثلة على هذا المعنى، وهي قائمة على حضارات قديمة لا حضارة واحدة، لكن هي كتب تخصصية ومرهقة، فيكفي الاطلاع على أي كتاب عن الطب في الحضارة المصرية القديمة، كنموذج، وهناك كتب كثيرة مترجمة ومؤلفة في الباب.

(٢) للتوسع في هذه النقطة انظر لهذه الدراسة الأنثروبولوجية القيمة لشعب "بدائي":
Divinity and Experience: the Religion of the Dinka. By Godfrey Lienhardt. London: Oxford University Press, 1961.

(٣) هذا لا يعني أنه كان لا يميز بين ما هو غيبي كالله والملائكة، وما هو حسي، فهذا التمييز تمييز واقعي، لكنه كان لا يمنع رؤية الغيبي من حيث المبدأ، لذلك لم ينكر سلفنا أبدا رؤية الله في الآخرة، ولا رؤية الجن في الدنيا، ولا أي غيب.

المتحرر مفهوم **"الشخص الغيبي"** أي الملائكة؟ علما بأن الإنسان قبل العلم لم يكن ينفي – مثله مثل الطبيعاني – وجود أسباب مادية للظاهرة الطبيعية، لأنها مفروضة بحكم الواقع. إن الموقف المتسق الوحيد للطبيعاني هو الإقرار بوجود مفهوم الفاعلية بشكل عام، سواء كانت فاعلية طبيعية أو **"فوق طبيعية"**. (١)

إن البديل الذي نقدمه هو **"التجربة الإنسانية الطبيعية"**، وليس الطبيعانية، هذا البديل يسمح بوصف الحدث بأكثر من طريقة لأغراض بشرية مختلفة، والانفعال معه، والاستجابة له، تجربة تؤمن بالمغيب وترىٰ المحسوس من خلاله، تجربة تخلو من الاغتراب عن الطبيعة، ولا توصّي الباحث التجريبي بعدم الانفعال أبدا بالظاهرة المبحوثة، فهي في النهاية طبيعة والإنسان جزء من الطبيعة. إن الطبيعانية شعار مثل "السلام العالمي"، كل شخص يجب أن يذعن له ويسير تحته، لكن النزاع كامن في مفهوم السلام نفسه وما يندرج تحته من أفعال وما يعد مقبولا وغير مقبول وفقا له. ومن ثم فالمسألة ليست كون المرء طبيعي أم غير طبيعي، فكلنا نقر بالأسباب والنتائج الملموسة بحكم الواقع، وإنما **"مفهوم المرء عن الطبيعة"**، هذا السؤال هو **"السؤال الحقيقي، وما يقود إلىٰ نزاع عميق"**. (٢)

لقد أخفقت **الطبيعانية الجذرية** في تبرير اليقين في المعارف الأساسية، لأن العلم بطبيعته وفي تصورهم استبدالي، فليس هناك نظريات أساسية للأبد، وبالتالي ليس هناك معرفة أساسية أصلا، أما الطبيعانية **المعتدلة** أو **المتحررة** فقد

(١) لعل القارئ هنا أدرك لماذا وضعت كلمة "فوق طبيعي" بين معكوفتين، لأن ما هو فوق طبيعي عند الطبيعانيين هو طبيعي ومتأصل في الخبرة البشرية.

(2) Mario De Caro and David Macarthur (eds), 2004, p. 22

أصابت في رفض أي شك في المعرفة الأساسية، كالشك في وجود العالم الخارجي مثلا، لأن الإنسان **بطبيعته** لا يشك في ذلك عمليا، ولا يحتاج إلىٰ مُثُل أفلاطونية لإعطاء معرفته وأخلاقه معنىٰ. **لكن** الإنسان بطبيعته أيضا متألّه عمليا، فالدين – كما ذكرت مرارا – عنصر جوهري مشترك في جميع المجتمعات الإنسانية التي كشفها التاريخ، فأسلوب حياة البشر كان دائما في إطار ديني. وعلىٰ ذلك، فالطبيعانية لو قبلت البعد الأخلاقي والبعد النفسي للإنسان لا بد أن تقبل البعد الديني، لا أقصد فقط القبول في الدراسة العلمية للإنسان (Descriptive)، وإنما أيضا – وهو الأهم – اعتبار ما يشترك فيه الشعوب القديمة معرفة إنسانية طبيعية صحيحة (Prescriptive)، وعلىٰ رأس ذلك **"وجود الله"** كفاعل وكقضية دينية وأخلاقية، فكل هذا يمثل التجربة الإنسانية الطبيعية.

هذا البديل الذي نقدمه يسمح بحديثنا العادي عن التصميم في الكون، أي في تأملاتنا اليومية، ونستجيب لذلك بعبادة الخالق، ويسمح بالحديث العلمي عن وجود **"نمط"** تصميم، كما في الخلية الحية مثلا، بصرف النظر عن موقف الباحث من وجود الله، لأن هذا النمط من حيث المبدأ ليس هناك ما يرفضه، ليس هناك أي مبرر لرفض التصميم كنظرية علمية، لأن التصميم نمط مقبول متفرع عن شعورنا الطبيعي بالتصميم في حياتنا اليومية، وفقا للتصور الصحيح للطبيعة الذي تبنيناه ودللنا عليه في هذا المقال.

* * *